الفصل الرابع :

ألفاظ المتنبي ومعانيه

اهتم الشعراء منذ القدم بالأناقة فى نظم الشعر .. وهذا ما حمل النقاد وعلماء البيان على إطالة الجدال والذهاب مذهبين فى قضية اللفظ والمعنى ، والنظر إلى الشعر من وجهتيه اللفظية والمعنوية . فجعلوا للفظ كما جعلوا للمعنى أحكاماً بلاغية خاصة ، وعنها نشأ ما عرف عندهم بالصناعة اللفظية والصناعة المعنوية

وهكذا انفرد اللفظ عن المعنى . فقدم بعضهم الأول ، وجعل بعضهم الصدارةللثانى ، وكان لكل فريق حججه وأسانيده .

يقول عبد القاهر الجرجانى :

وماذا فى اللفظ لولا المعنى ؟؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟؟ [١] .

ويقول ابن قتيبة :

وضرب منه – أى الشعر – حسن لفظه ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلاً [٢] .

وقد دافع عن هذا الرأى – أفضلية المعنى على اللفظ – بعض كبار الباحثين كعبد القاهر الجرجانى وابن جنى واعتنقه كثير من الشعراء .

وعلى الجانب الآخر قد فريق اللفظ على المعنى .. وهو فريق أكثر عدداً وأكثر شيعة . يقول القيروانى : إن اللفظ أغلى من المعنى ثمناً وأعظم قيمة وأعز مطلباً فإن المعانى موجودة فى طباع الناس يستوى فى ذلك الجاهل والحاذق ، ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ألا ترى لو أن رجلاً أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيث ، وفى الإقدام بالأسد ، وفى

المضاء بالسيف ، وفى العزم بالسيل ، وفى الحُسْن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حُلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة لم يكن للمعنى قدر [٣] .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته :

وصناعة الكلام نظماً وشعراً إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى . إنما المعانى تبع لها وهى أصل . والمعانى موجودة عند كل واحد وفى طوع كل فكر له منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة وهو بمثابة القوالب للمعانى [٤] .

والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ [٥] .

ويقول الأستاذ عباس حسن [٦]:

ومن البديه أن نقول أن المعنى لا يتجسم ولا يبرز نفسه ولا يمتد التأثير من ذاته وإنما يبرز فى قوالب من الألفاظ تظهره وتحدد معالمه وتمده بالتأثير . فإلى اللفظ يرجع الفضل الأكبر فى ظهور المعنى وبروزه . وإلى جمال اللفظ وحسن اختياره والبراعة فى أدائه يرجع الفضل الأول فى تأثير المعنى فى العقول والنفوس .

ويتفق الدكتور زغلول سلام [٧] مع هذا الرأى فيقول :

وهذا التصور لاستقلال اللفظ عن المعنى لا يتفق فاللفظ فى أصله رمز المعنى ولا يقوم اللفظ وحده صوتاً دون معنى ، أى لا يمكن – على صورة من الصور – فصله

عن مدلوله ، أو حتى تصور هذا الفصل ذهنياً كالفصل بين الروح والجسد فى حالة الموت .

ويقول الإمام عبد القاهر الجرجانى [٨] مثبتاً مبدأين هامين :

الأول : أن البلاغة لا تقوم على اللفظ بذاته ولا على المعنى بذاته ، بل على طريقة نظمهما معاً فى الجملة .

الثانى : أن النظم العالى لا يعنى مجرد الإجادة فى رصف الألفاظ والعبارات بل هى أن يكون للكلام تلك الروعة المعنوية التى تمس القلوب إذا لا يرتفع بتركيبه عن المعتاد ، ويوحى بمعان وراء المعانى . وهذا مسلك دقيق لا يسلكه إلا من أوتى ملكة التمييز العالى من أساليب التعبير . وقد سبق عبد القاهر الجرجانى بهذا التفريق بين المعنى ومعنى المعنى ما وصل إليه كبار الأوروبيين المحدثين فى هذا الشأن . فالجنس الأدبى بهذا المفهوم لم يعد شكلاً فحسب ولا مضموماً فحسب إنما هو تضفيرة جيدة بين الشكل والمضمون والصياغة التركيبية للكلام .

أما عن قضية الشعر...

فسنورد هنا آراء بعض النقاد القدامى ، فنحن حيال شاعر قديم ومن الأفضل الاستعانة برأى معاصريه لأنهم أقدر على تقييم الشعر فى تلك الحقبة ، ذلك فضلاً عن أن اللغة فى اطراد استعمالها ووضوح مدلولاتها تتضمن إلى معانيها البينية دقائق لا تستطيع المعاجم تفسيرها ، ومرامى تختلف باختلاف الزمان والمكان

ثم إن فى عرض آراء النقاد من السلف فائدتان أخريان :

١- الاستعانة بنظرهم وقد كانوا أكثر منا فراغاً للأدب واختصاصاً به

٢- أن معرفة آراء هؤلاء النقاد فى الشعر تدخل فى التاريخ الأدبى للشاعر فضلاً عن الحقبة الزمنية التى عاشوا فيها .

يقول الأمدى [٩] :

وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأنى ، وقرب المأخذ ، واختيارالكلام ووضع الألفاظ مواضعها وأن يورد المعنى اللفظ المعتاد فيه المستعمل فى أمثاله . وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه ، فإن الكلام لا يكتسى البهاء والروئق إلا إذا كان بهذا الوصف. ويقول الجاحظ [١٠] :

إن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً .

ويقول ابن سنان الخفاجى [١١]:

ومن الصحة صحة النسق والنظم وهو أن يستمر – أى الشاعر – فى المعنى الواحد ، فإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقاً بالأول وغير منقطع عنه .

ويقول ابن طباطبا العلوى [١٢] :

وينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها ، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وبين تمامه فصلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه فينسى السامع

المعنى الذى يسوق القول إليه ، ولا يباعد كلمته عن أختها ، ولا يحجز بينها وبين إتمامها بحشو يشينها

ويقول أبو هلال العسكرى (١٣):

إن جهد الشاعر وصنعته مما تزيد الشعر وضوحاً وقوة . وإذا عمل قصيدة فهذبها ونقحها بإلقاء ما غث من أبياتها ورث ورذل ،والاقتصار على ما حسن وفخم بإبدال حرف منها بآخر أجود منه حتى تستوى أجزاؤها وتتضارع هوادبها وأعجازها . وينبغى أن تجعل كلامك مشتبهاً أوله بآخره ، ومطابقاً هادية لعجزه ولا تتخالف أطرافه ولا تتنافر أطواره وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها ومقرونة بلفقها .

ويبرز ابن قتيبة حسنات الشعر فيجملها فى (١٤):

سهولة اللفظ – إصابة التشبيه – جودة القوافى – تجنب الضرورات والفضول والتكرير والإفراط فى المبالغة والأخطاء المعنوية والعروضية .

أما المرزوقى فيرى (١٥):

وجوب قيام العمود الشعرى على عدة أركان نلخصها فيما يلى :

فى المعنى : أن يقبله العقل الصحيح ، أى يكون مستقيماً لا يخالف المعقول

فى اللفظ : أن يسلم من الهجنة .. أى يكون مألوفاً مستعذباً .

فى الوصف : الإصابة وحسن التمييز .. أى أن يكون صادقاً مناسباً للموصوف

فى التشبيه : أن يقع بين شيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما ولا ينتقص عند العكس .

فى الاستعارة : أن يكون المستعار مناسباً للمستعار له ، ويكتفى بذكر المستعار فقط فى التحام أجزاء الكلام . وأن يكون الكلام منسجماً لطيف التركيب حسن التوقيع .

فى القافية : وأن يكون مما يشوقه اللفظ والمعنى .

ثم يضيف : بأن هذه الخصال هى عمود الشعر فمن لزمها بحق وبنى شعره عليها فهو الشاعر المفلق .

وفى عصر المتنبى كانت اللغة بتفريعاتها الدقيقة تمثل القيمة الثقافية الأولى فى المجتمع ، يحرص عليها الجمهور ويحرص عليها الحكام لما لها من صلة وثيقة بالعقيدة الدينية ومحورها القرآن الكريم ، وبالشعور القومى الذى كان الدافع الدينى يغذيه ويكرس مقوماته .

فعصر المتنبى كان عصر ازدهار علوم اللغة ونضج مباحثها ووفرة مصنفاتها وكان يحفل بطائفة من كبار اللغويين لم يحظ بهم أى عصر من عصور العربية . كان فيه أبو على الفارسى وأبو سعيد السيرافى وأبو الحسن بن خالويه وعلى بن عيسى الرمانى وأبو الفتح وأبو الطيب اللغوى وغيرهم مما لا يتسع المجال لاستقصائهم

ولأن الأديب دوماً ابن عصره .. فقد كان المتنبى مر النفس صعب الشكيمة جاداً مجداً . نشأ مؤهلاً لأن يكون الشاعر المثقف العالم بلغته المحيط بأطرافها ودقائقها ، مهيأ لأن يناظر فيها علماءها ويحاورهم ويجادلهم وليس غريباً إذن أن يفاجئنا فى شعره بثروة لغوية واسعة تتجاوز حدود الفصيح إلى الغريب الشارد الذى لا تكاد تجد له صدى فى غير كتب (الغريب) وكتب (النوادر) . ولعل تمرسه فى دراسة اللغة وامتلاك ناصيتها أعطاه إحساساً بأحقيته فى أن يصنع لنفسه لغته قياساً وإن لم ترد عن العرب سماعاً فهو يشتق اللفظ الذى يؤدى به المعنى على مقتضى القياس وإن ضاقت دائرة هذا القياس أو منعه المتزمتون من النحويين

ويذكر الحموى – وهو من هو خصومة لأبى الطيب – أنه [١٦]: لما علوته بالكلام قال : يا هذا مسلمة إليك اللغة ، فقت : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها ومن نصابها وأولى الناس بالتحقق بها والتوسع فى اشتقاقها والكلام على أفانينها ، وما أجد أولى بأن يسأل عن لغته منك .

وفى مصر قرىء على أبى الطيب كتاب " المقصور والممدود" لأبى العباس بن ولاد فصححه وأخذ على مؤلفه غلطات [١٧] .

والذى لا ريب فيه أن أبا الطيب المتنبى بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواردها ، ولقن عن أهل البادية منها ما لا نعلمه لشاعر آخر. وقد بلغ فى هذا أن عُدَّ فى عصره من علماء اللغة وإن غلب الشعر عليه .

وقد أعرب هو عن شغفه وولعه بالقراءة وأنسه بالكتب فى قوله :

أعز مكان فى الدُنا ظهر سابح وخيرُ جليس فى الزمان كتابُ

ويتفق غالبية النقاد على أن المتنبى كان من شعراء المعانى ..

وقد غربلت الأشعار قديمها وحديثها ،وتأملها تأمل المنتقد فما وجدت ما لأبى تمام والمتنبى فى باب المعانى [١٨] .

كما وفق التمنبى بين الشعر والفلسلفة ، وجعل أكثر عنايته بالمعنى ، وأطلق الشعر من القيود التى قيده بها أبو تمام وشيعته ، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية ، فهو إمام الطريقة الابتداعية فى الشعر العربى [١٩] .

ورغم الاتفاق على عناية المتنبى بالمعنى ، إلا أن النقاد اختلفوا فى ألفاظه اختلافاً واسع المدى . فمنهم من ينزهه عن مظنة العيب ويرى أن ألفاظه بلغت من الدقة وحسن الاختيار منزلة يستحيل عليك معها أن تغير كلمة من كلماته بسواها ثم يتبقى للأسلوب طلاوته ورقته التى كانت له قبل التغيير ، وهذا رأى أبى العلاء المعرى . ومنهم من يرى أنه رجل يتفاصح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خباء او غَدِّىَ لبن لم يطأ الحضر ولم يعرف المدر .

ويجب الإقرار بأنه ما من شاعر عُرفَ بكثرة الخصوم مثل ما عرف المتنبى فقد ناوأه وتألب عليه خلق كثير تدفعهم إلى ذلك عوامل شتى وأسباب متباينة . وقد لفتت هذه الظاهرة النقاد القدامى والمحدثين . أما القدامى فاكتفوا بتسجيلها ولم يحاولوا تفسيرها . وأما المحدثون فقد أرجعوها إلى طائفة من العوامل بعضها يتصل بأخلاق الشاعر وخصاله ، وبعضها يتعلق بشعره ، أو بما اتسم به ذلك الشعر من سمات فى المعنى والتعبير .

ويقول الدكتور إحسان عباس [٢٠] : وقد صدم المتنبى الذوق مرتين ، مرة بشخصه المتعالى المتعاظم ، ومرة بجرأته فى الشعر. جرأته التى تركب المبالغة حتى تمس العقيدة الدينية وتنتحل أراءً فلسفية غريبة ، وتستخف بأصول اللياقة والعرف فى مخاطبة الممدوحين ، وأخيراً تصرفه باللغة تصرف المالك المستبد ..

والمتتبع للنقد الذى وصل إلينا حول المتنبى يجد أن أكثره هو النقد الصادر عن خصومه وشانئيه . ومن الغريب أننا نسمع بأنصار أبى الطيب ونرى الكتب مملوءة بالرد عليهم ، ولكننا لا نجد آثاراً مكتوبة فى الدفاع عن صاحبهم ، وكأنهم اكتفوا بما كانوا يذيعونه فى المجالس ، على حين تلاحقت الكتب فى العراق وفارس ومصر للرد عليهم . وليس فى الحالين تكافؤ ،فأنصار المتنبى يضيعون جهودهم فى أحاديث المجالس والحلقات ، بينما يخلد خصومه مذمته فى الكتب والرسائل .

والواقع أن أهم ما يميز المتنبى عن جمهرة شعراء العربية الآخرين أن قارىء ديوانه فى جملة غفيرة من المواضيع كثيراً ما يواجه بالإرهاق والدوار قبل أن يهتدى إلى معرفة فكرة البيت الشعرى والمعنى الذى قصد إليه الشاعر ، وقد لا يهتدى إلى مراد الشاعر ما لم يستعن بالمصادر القديمة التى توفرت باسم " المشكل فى شعر المتنبى" ، وسماه نقاده " التعقيد فى شعر المتنبى " حتى أن الواحدى يقول :

إن معانيه خفيت على اكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة العلماء حتى الفحول منهم والنجباء [٢١] .

وقد أصاب بعض أدبائنا حين نقل رأى الواحدى وأردفه بقوله أن المعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفيه أو القضايا التعليمية التى تقتضى دقة النظر والجهد فى فهمها ،إنما هى معانٍ طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز.

ولعل فى تعدد المحاولات التى بذلت قديماً فى دراسة وتفسير أشعاره تقدم لنا دليلاً واضحاً على تميز الشاعر على سواه فى هذه الظاهرة – الغموض – التى تشكل سمة خاصة به ، افرزها تكوينه الثقافى ومزاجه الخاص .

ومصطلح "الغموض" و "الإبهام" وما يتصل بهما من ألفاظ مثل التعقيد والمعاظلة هى مصطلحات استعملها النقاد العرب وأسهبوا فى الحديث عنها فى مؤلفاتهم . كما اتخذوا من وجودها فى الشعر موقفاً محدداً . يقول عبد القاهر الجرجانى ملخصاً موقفه من ظاهرة التعقيد فى الشعر :

وأما التعقيد فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى يمثله تحصيل الدلالة على الغرض ، حتى احتاج القارىء أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه عن غير طريق ، كقول المتنبى :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب فى مثله وكَدَّلك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مملس ، بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه منه عسر عليك ، وإذا خرج ..خرج مشوَّه الصورة ناقص الحسن .

ومن أهم ما يؤخذ على شعر أبى الطيب المتنبى :استكراه اللفظ ، وتعقيد المعنى ، واستعمال الغريب ،وقبح بعض المطالع ، ومخالفة القياس ، والتفاوت فى شعره ـ والخروج من المبالغة إلى الإحالة كقوله :

ولا الضعفُ حتىيبلغ الضعفُ عفه ولا ضعفُ ضِعفِ الضعف بل مثله ألف

وقوله:

وفاؤكما كالربع أسجاهُ طاسمهُ بأن تسعدوا والدمع أسفاه ساجمه

ولو سألنا المتنبى عن الدافع له على مثل هذا القول لقال أنه أراد أن يتعب سامعيه .

ويقول:

شيم الليالى أن تشكك ناقتى صدرى بها أفضى أم البيداء

ويقول :

فرؤوس الرماح أذهبُ للغيـ ـظ وأشفى لغلُ صدر الحقودِ

وهو هنا يشتق من الرباعى" أفضى" .. "يفضى" ، و "أذهب" "يذهب" ، صيغة تفضيل وشرطها عند النحاة أن يكون فعلها ثلاثياً .

ويقول فى قصيدة أخرى :

فدى من على الغبراء أوَّلهم أنا لهذا الأبى الماجد الجائد القدم

لقد اشتق اسم الفاعل "جائد" من جاد يجود قياساً ، وإن لم يسمع عنه العرب حيث استعاضوا عنه بالصفة المشبهة باسم الفاعل "جواداً" لخفتها ورشاقتها [٢٢]

ويقول أيضاً :

فمضت وقد صبغ الحياءُ بياضها لونى كما صبغ اللجينُ العسجد

ومع أن صبغ لا تتعدى إلى مفعولين ، إلا أن شاعرنا عداه بعد أن ضمنه معنى (أحال) و(صير) .

ورغم امتلاك امتلاك المتنبى لرصيد لغوى غزير، إلا أنه كان يلجأ أحياناً إلى تجاوز العرف الشائع فى استعمال المفردات من حيث قواعد تأنيثها وتذكيرها وأفرادها وتثنيتها على خلاف ما كان الناس يألفونها عليه [٢٢]. فهل السبب فى ذلك قضية المعنى التى كانت همه الأول والأوحد والتى كانت مقدمة عنده على سواها ؟؟؟.

يقول المتنبى :

متَّلت عينيك فى حشايَ جراحة فتشـــابها كلتاهُمـــا نجـــلاءُ

وكان مقتضى اللفظ أن يقول (فتشابهتا) ولكنه تجاوز ذلك وحمل اللفظ على المعنى فذهب بالعين إلى العضو ،وبالجراحة إلى الجرح ، وهما مذكران [٢].

ويقول فى مناسبة أخرى :

حشاى على جمر ذكىَّ من الهوى وعيناى فى روضٍ من الحسن ترتع

وكان عليه أن يقول (ترتعان) ، واعتذروا له بأن الحكم العينين حكم حاسة واحدة فلا تكاد تنفرد إحداهما برؤية دون الأخرى فاكتفى بضمير واحد [٢٥]

ويقول :

وتكرَّمت ركبانُها عن مبركٍ تقعــان فيــه لــيس مسـكاً أذفــرا

وهنا يخبر عن الجمع بالمثنى ، وهو ضعيف وغير سديد فى صناعة الإعراب كما يقول الثعالبى .

وقد يعمد المتنبى فى إعطاء الكلمة معنى غير معناها الذى ألفه الناس أو استعمالاً لم يسبقه إليه أحد . فهو يضع (لم) موضع (ليس) فى قوله :

إذا داءُ هنــا بقــراط عنــه فلــم يوجــبْ لصــاحبه ضــريب

محتجاً فى ذلك بشواهد من شعر الأعشى حيث استخدم (لم) مكان (ما) وغيره وضع (لن) مكان (ما). ويقول الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب [٢٦] أنه تتبع الدراسات الكثيرة لقدامى النقاد ولم يجد بها ما يصح إضافته إلا مثالاً واحداً وقع عليه بعد جهد مضنى وبحث وفير.

يقول المتنبى :

فــآجرك الإلــهُ علــى عليــلٍ بعثــتَ إلى المســيح بــه طبيبــاً

وموضوع المؤاخذة قول المتنبى : بعثت المسيح به ، حيث نزل الفعل المتعدى منزلة الفعل اللازم فعداه بالحرف .

ترى .. هل كان المتنبى يرافق قراء شعره ومستمعيه ويعيش معاناتهم عند مواجهة هذا العويص المعقد من أبياته ؟؟. ربما ..بل أن ذلك حدث باليقين وشعور الاغترار والخيلاء يجعله ينظر إليهم وداخله يقول:

أنـامُ ملءَ جفونى عن شواردها ويسـهر الخلـقُ جرَّاهـا ويختصـمُ

لكن تلك "الشوارد" فى الحقيقة ليست ألفاظاً مفردة وإلا لتكلفت كتب اللغة بالإفصاح عنها وكشف غامضها ، لكنها معانيه التى كان الناس يكدحون ويكدون أذهانهم فى الاهتداء إليها ،بل وكانوا يستعينون بالشاعر نفسه ليكشف لهم عن مقاصده من هذه الشوارد التى هى ليست شوارد فى الواقع بقدر ما هى ألغاز مغرقة فى الغموض .

ولنتأمل هذه "الشادرة" لنلمس كيف أتعبت المتخصصين من أبناء عصره يقول المتنبى :

أمِط عنكَ تشبيهى بما وكأنه فما أحدٌ فوقى ولا أحدٌ مثلى

ما علاقة (ما) بالتشبيه ؟؟وهل هى من أدواته ؟؟

أجاب ابن فورجة : هذه (ما) التى تصحب (كأنما) إذا قلت : كأنما زيد الأسد .

وأجاب الخوارزمى:

(ما) هنا اسم بمعنى (الذى) ، ومعناه أن يقال لمن يشبه البحر: كأنه ما هو نصف الدنيا ، يعنون البحر[٢٧].

وأجاب ابن جنى [٢٨] :

إن(ما) سبب التشبيه لأن القائل إذا قال الآخر: بم تشبه هذا؟قال له المجيب كأنه الأسد أو كأنه الأرقم . فجاء المتنبى بحرف التشبيه وهو (كأن) وبلفظ (ما) الذى كان سؤالاً فأجيب عنها بـ"كأن" .

أما صاحب التبيان فيجيب بأن: الصحيح من معنى هذا البيت أن (ما) نكرة بمعنى شىء موضوعة العموم، كأنه قال : أمط عنك تشبيهى بشىء من الأشياء

هذا نموذج واحد من نماذج مشكل المتنبى ...

اختلف فيه هؤلاء الشرَّاح وكلهم من العلماء باللغة والشعر ....

وتحيروا فى فهم غرض الشاعر .....

فما البال بجمهور القراء ممن لا يملكون قدرة هؤلاء العلماء ومعرفتهم ؟؟؟ وهل الشعر هو ما يسهر الخلق فى تفهمه ، ويختصم الأئمة فى إدراك مراميه ؟؟؟

يقول المتنبى يصف ليلة طويلة :

أحـــادٌ ســـداس فـــى أحـــادِ ليلتنـــــا المنوطـــــة بالتنـــــاد

قال الواحدى :

لقد أكثروا فى معنى هذا البيت ولم يأتوا ببيان مفيد ، ولو حكيت ما قالوا لطال الكلام . ولكنى أذكر ما وافق اللفظ من المعنى أنه أراد : أواحدة أم ست فى واحدة .

وقال الصاحب بن عباد :

إنها من عيوب قصائده التى تحير الأفهام وتفوت الأوهام لأنه جمع فى الحساب ما لا يدرك بالارتماطيقى .ويضيف: أنه كلام الحِكُل ورطانة الزَّط ، وما ظنك بممدوح قد تشمر للسماع من مادحيه فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة والمعانى المنبوذة .

ويتفق ابن خلدون فى مقدمته مع الصاحب فيقول :

ولا تكفى فى الشعر ملكة الكلام العربى ، بل تحتاج إلى تلطف ومحاولة فى رعاية الأساليب واستعمالها ، وانتقاء التراكيب الصحيحة فيرصها كما يفعل البناء

ونكتفى بهذا القدر مما عدوه من عيوب شعر أبى الطيب ، وحسب من يريد المزيد الرجوع إلى كتاب (الفتح الوهبى) لابن جنى ، و (الواضح) للأصفهانى و(الفتح على أبى الفتح) لابن فورجة وغيرها من المصنفات .

لكن ما نود أن نقرره أنه من الحيف أن ننكر طاقة معانى الشاعر وغزارتها فى أكثر شعره . ولعله بالغ فى تلك المعانى والأوصاف فوقع فيما وقع فيه المتكلفون

وقد يكون لشنيع مبالغاته أنها الوسيلة الناجحة فى عصره لاستنزاف المنح والعطايا ، وإغراء الملوك والأمراء وأشباههم من الأغنياء بالبذل والهبات .

وقد جعل الصاحب بن عباد والعكبرى والقيروانى من هذه المآخذ سمة لازمة من سمات الشاعر يتعذر عليه الإقلاع عنها . مع ميلهم إلى إثبات أن المتنبى كان يعمد إلى ذلك قصداً ليدلل على علمه باللغة وبراعته فى سبك الألفاظ سبكاً مخالفاً ألفه الناس واعتادوه من الشعراء ومن ثم أوقع نفسه فى الغموض والالتواء

والواقع أن تلك الأبيات التى ساقوها لا تعدو أن يكون بعضها معيباً فى ذاته أما أن تكون دليلاً على قصور وفساد الخاطر فإنها لا تنهض أو تدل على ذلك

ولا شك أن المتنبى كان يتعسف أحياناً فى أساليبه تعسفاً لا يصم الآذان لكن مما لا شك فيه أيضاً أن مئة بيت أو أكثر لا تسقط بحال ديواناً كاملاً

" ولقد رأيتك – وفقك الله – لما احتفلت وتعلمت وجمعت أعوانك واحتشدت وتصفحت هذا الديوان حرفاً حرفاً واستعرضته بيتاً بيتاً ، وقلبته ظهراً وبطناً ، ولم تزد على أحرف تلقطتها وألفاظ تمحلتها ادعيت فى بعضها الغلط واللحن ، وفى أخرى الاختلال والإحالة ، ووصفت بعضها بالتعسف والغثاثة وبعضاً بالضعف والركاكة ، وبعضاً بالتعدى فى الاستعارة . ثم تعديت بهذه السمة إلى جملة شعره فأسقطت القصيدة من أجل بيت ونفيت الديوان لأجل قصيدة . وعجلت الحكم قبل استيفاء الحجة وأبرمت القضاء قبل امتحان الشهادة [٢٩] .

ويبدو أن الجرجانى بهذه العبارة كان يعنى الصاحب بن عباد الذى تحامل على أبى الطيب وجمع له من ديوانه قرابة ثلاثين بيتاً رأى فى كل منها عيباً من العيوب التى تقعد بها عن الوصول إلى المستوى الجمالى المنشود .

والصاحب بهذا الحكم متجن على الشاعر . فهذا القدر لا يكاد يذكر بالنسبة لهذا الديوان الضخم الذى يبلغ ما حواه من الأشعار خمسة آلاف وأربعمائة وأربعة من الأبيات [٣٠].

والواقع أن استخفاف المتنبى بقواعد اللغة قضية لا يقرها تاريخ المتنبى نفسه . فالذى يجلس بين يديه ابن جنى ويتصدى لابن خالويه ، وينقل عنه أبو على

الفارسى ، ويقرأ عليه عضد الدولة كتاباً فى اللغة لا يستطيع أن يستخف باللغة وهو من كبار رجالها كما يقرر ذلك خصومه .

أما ما قيل من أنه كان يستخف بقواعد اللغة ويغرم بغير المشهور منها ويتلاعب بالألفاظ أحياناً لإشعار منافسيه بعلو كعبه فى الصناعة ، أو أنه كان يستجهل القوم فيصوغ لهم من الألفاظ ما لا يهتم بتنقيحه ، مكتفياً بأن يستر عيوبه ببيت من الحكمة والأمثال يذكره عقب كل فقرة من قصائده [٣١] .

وما قيل من أن: ذلك أثر من آثار حرص المتنبى ، فهو يبدأ البيت حسنًا سهل المطلع واضح الفكرة ثم يصعب إتمامه فيعز عليه أن يضيع البيت وفيه هذه الحسنات فيتمه بأى شكل [٣٢] .

وأيضاً ....

لأن كثيرين من الناس يحبون أن يضعوا صعوبات وهمية أمام أنفسهم يخادعون بها أنفسهم ليقتنعوا بأنهم يستطيعون مايريدون متى أرادوا [٣٣]

أن شاعرنا تنتابه من آن لآخر نوبة أشبه بالحمى يهذى فيها بالغريب ويخرج كل ما بقى عالقاً فى صورة أرجوزة يخفف بها ما كان مرتكزاً على صدره من هذا الحمل الثقيل

نقول أن ذلك كله مردود عليه بالسؤال بسيط : من هم الناس الذى كان يستجهلهم المتنبى ؟؟ أليسوا هم الناس أنفسهم الذين كان يسوق لهم الحكمة التى تحتاج إلى ذهن مرهف ونفس واعية بصيرة بتاريخ القوم ، خبيرة بمجريات الأمور من حولهم وبكل ما يصادف هوى فى نفوسهم لتفهمها وتتبصر ما فيها ؟؟؟

ثم ....

أى حمى تلك التى كانت تنتاب الشاعر من حين لآخر يهذى فيها بالغريب ؟؟. لقد أبدع أبو الطيب أجمل قصائده (الحمى) عندما انتابته تلك الحمى المزعومة .

والحق ما قرره الأستاذ على النجدى ناصف من أن التعقيد والإغراب لم يكونا عند المتنبى طبيعة راسخة ولا صفة ملازمة ، ولكنه كان عارضاً طارئاً تقتضيه أسباب موقوتة فيبقى ما بقيت ويمضى على أثرها حين يزول [٣٥] .

وما أكثر دواعى اختلال المزاج والإعياء فى حياة هذا الشاعر الكبير ، الذى يدلنا التاريخ أنه – أى التاريخ – يأبى الإباء كله أن يخلد فناً كل مقوماته الشذوذ والتعقيد والغرابة والاضطراب اللهم أن يكون تاريخاً للنقائض وهذا ما لم تسمع عنه البشرية أبداً [٣٦] .

علاوة على ذلك ، أى عالم ذاك الذى لايهفو وأى جواد ذاك الذى لا يكبو ؟؟ إنها الطبيعة البشرية القاصرة على الدوام ، والتى تستشعر هذا القصور فنراها تحاول الإجادة والتجويد بحثاً عن كمال منشود تطمح دائماً إلى تحقيقه .

وحسبنا دليلاً على منزلة الرجل أن شاعرًا كبيرًا كابن دينار الذى رويت عنه كتب الزجاج وثعلب وابن الأعرابى وغيرهم يمدحه بقصيدة مطلعها :

ربَّ القريض ذلك الحلُّ والرحلُ ضاقت إلى العلم إلا نحوك السبلُ

تضاءل الشعراء اليوم عند فتىً صعاب كل قريضٍ عنده ذلل

الهوامش

١. دلائل الإعجاز .

٢. مقدمة كتاب الشعر والشعراء .

٣. العمدة / جـ١ .

٤. مقدمة ابن خلدون/ مختارات من تراثنا / وزارة الثقافة والإرشاد / مصر/١٩٦٠ .

٥. البيان والتبيين للجاحظ .

٦. عباس حسن/ المتنبى وشوقى /دار المعارف / مصر ١٩٦٤.

٧. تاريخ النقد الأدبى إلى القرن الرابع الهجرى /دار المعارف /مصر.

٨. أسرار البلاغة .

٩. هو التحسين بن بشر المتوفى سنة ٣٧٠هـ؛ وهو صاحب كتاب الموازنة . كان حسن الفهم جيد الدراية والرواية مريع الإدراك ، له شعر حسن واتساع تام فى الأدب/ معجم الأدباء / ياقوت .

١٠. البيان والتبيين .

١١. سر الفصاحة .

١٢. عيار الشعر.

١٣. الصناعتين / باختصار.

١٤. الشعر والشعراء .

١٥. مقدمة شرح ديوان الحماسة .

١٦. يوسف البديعى /الصبح المنبى عن حيثية المتنبى /دار المعارف / مصر ١٩٦٣ .

١٧. عبد الوهاب عزام/ ذكرى أبى الطيب بع ألف عام طبعة الجزيرة بغداد ١٩٣٦ .

١٨. د. صاحب أبو جناح/ مجلة المورد /العراق/ المجلد السادس / العدد الثالث ١٩٧٧.

١٩. الابتداعية: ترجمة معنوية لكلمة *Romantique* .وفى خروج أبى الطيب وابن هانى الأندلسى وأبى العلاء المعرى وأضرابهم على أساليب العرب المخصوصة وإطلاقهم الشعر من قيود الصناعة ما يشبه تلك الطريقة / أحمد حسن الزيات /تاريخ الأدب العربى دار نهضة مصر.

٢٠. النقد المنهجى عند العرب .

٢١. ممن ألف كتباً فى المتنبى: ابن جنى وأبو القاسم الأصفهانى ، وابن فورجة وابن بسام وأبو العلاء المعرى وأبو حيان التوحيدى وعلى بن عيسى الريعى والعروضى وغيرهم .

٢٢. د. صاحب أبو جناح /مجلة المورد/ مرجع سابق .

٢٣. السابق .

٢٤. نفسه .

٢٥. الديوان بشرح الواحدى وشرح البيان .

٢٦. المتنبى بين ناقديه / دار المعارف/ مصر ١٩٦٤ .

٢٧. الفتح على أبى الفتح .

٢٨. الفتح الوهبى .

٢٩. الجرجانى /الوساطة بين المتنبى وخصومه .

٣٠. زيادات ديوان المتنبى/ (قال الإمام أبو الحسن على بن أحمد المعروف بالواحدى رحمة الله عليه : هذا آخر ما اشتمل عليه ديوان أبى الطيب المتنبى الذى رتبه بنفسه وهو خمسة آلاف وأربعمائة وأربع وتسعون قافية / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام مرجع سابق .

٣١. محمد عبد الجواد/ صحيفة دار العلوم .

٣٢. د. محمد كامل حسن / الكاتب المصرى / نوفمبر ١٩٤٥ .

٣٣. السابق .

٣٤. عباس محمود العقاد وآخرون / أبو الطيب المتنبى حياته وشعره / مجموعة مقالات / المكتبة الحديثة بيروت طـ١ /١٩٨٢.

٣٥. الكاتب المصرى / عدد يناير ١٩٦٤ .

٣٦. د. محمد عبد الرحمن شعيب / المتنبى بين ناقديه دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ .